المؤتمر الدولي حول:
دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العولمي
15-17 محرم 1432 هـ الموافق 21-23 ديسمبر 2010 م
www.cis.psu.ac.th/rispgso

من واقع تجارب طلاب الدراسات العربية والإسلامية في الغرب "بريطانيا نموذجاً"

إعداد:

أ.د سمير الدروبي
جامعة مؤتة

أ.د جهاد المجالي
جامعة آل البيت

كلية الدراسات الإسلامية
جامعة الأمير سونجكلا فرع فطاني، جنوب تايلاند
www.cis.psu.ac.th

بسم الله الرحمن الرحيم

من واقع تجارب طلاب الدراسات العربية والإسلامية في الغرب "بريطانيا نموذجاً"*

مقدمة

تعود الصلات والعلاقات الحربية والاقتصادية والعلمية والدبلوماسية إلى أيام الحروب الصليبية، وذلك عندما جاء الأوروبيون غاصبين لبلاد الشام والعراق ومصر في حملات منظمة ، تمكنت من إقامة دويلات لاتينية في المنطقة ، بدءا من القرن الحادي عشر الميلادي وحتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي.

وتحقق الفرنج المنتصرون عسكريا في بداية تلك الحروب، أن الشرق متقدم علمياً وحضارياً، فبدأوا من يومها بنقل الكتب العربية ومظاهر الحضارة إلى بلادهم وإلى لغاتهم(1).

وتدفقت البعثات العلمية من مختلف البلاد الأوروبية إلى الأندلس طلبا للعلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية والفلاحية التي كانت قد وصلت إلى أوج رقيها على يد المسلمين في الأندلس.

وكان الحضور الانجليزي بارزاً في تلك البعثات العلمية، التي نقلت علم المسلمين وحضارتهم إلى اللغة اللاتينية ، ثم إلى اللغات الأوروبية فيما بعد .

ثم ظهرت الدولة العثمانية على مسرح الأحداث في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، وكان لها اليد الطولى على معظم البلاد الاوروبية ، حتى انجلترا وفرنسا كانتا تطلبان الود والحماية من الدولة العثمانية.

---

* بحث مقدم إلى مؤتمر «دور الدراسات الإسلامية في المجتمع العولمي»، المنعقد بتاريخ 21-23 ديسمبر 2010م، في كلية الدراسات الإسلامية بجامعة الأمير سونجكلا فطاني، تايلاند.

(1) انظر : الدروبي، الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي.

وكانت الدولة العثمانية قد منحت كثيراً من الامتيازات للبلدان الأوروبية، ثم تطورت هذه الامتيازات بعد ضعف الدولة العثمانية مع نهاية القرن السابع عشر إلى تدخل للقناصل في كثير من أمور الدولة العثمانية مما مهد لقدوم الاستعمار الغربي الحديث الذي تُعد حملة نابليون أبرز مظاهره وأعظمها .

وأبدى الشرق العربي ممثلاً بمصر ودولة بني عثمان مقاومة ضارية للحملة الفرنسية ، وحررت مصر بعد أربع سنوات من الاحتلال تقريباً في مطلع القرن التاسع عشر ، وبعد ذلك بسنوات جاء الانجليز محاولين احتلال مصر، ولكنهم رودا إلى أعقابهم بعد بضعة أشهر من تلك المحاولة الفاشلة.

وكان نجاح الانجليز بعد تغلغل شركة الهند الشرقية في الهند باعثاً للمزيد من طمع بريطانيا في البلاد الإسلامية ، وتمكنت انجلترا بقوة أسطولها البحري من السيطرة على عدن والخليج العربي، والسواحل الإفريقية الشرقية ، ومصر والسودان، وفلسطين والعراق، وغيرها بعد الحرب الكونية الأولى وقبلها وأصبحت القوة العظمى المهيمنة على كثير من أرجاء العالم الإسلامي .

ومن يومذاك بدأت البعثات العربية والإسلامية تتقاطر على انجلترا طلبا للعلم في جامعاتها ، ويبدو أن عدد الطلاب المبعوثين من العالم الإسلامي إلى بريطانيا كان قليلاً في البداية ، ولكن مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأت أعداد الطلاب العرب الذين يدرسون في بريطانيا بالازدياد، وتخرج منها الآلاف من الطلبة العرب والمسلمين في مختلف التخصصات العلمية والإنسانية.

وقد كانت سياسة الإيفاد في الجامعات الأردنية في الستينيات وما بعدها، قائمة على تفضيل بريطانيا وأمريكا على غيرهما من البلدان الاوروبية في موضوع البعثات العلمية وذلك لعالمية اللغة الإنجليزية.

وقامت الجامعة الأردنية، وجامعة مؤتة، وجامعة اليرموك، وغيرها من الجامعات بإرسال عدد من مبعوثيها إلى بريطانيا للتخصص في الدراسات العربية والإسلامية .

وتجربة الطلاب المبعوثين إلى تلك الجامعات متعددة الجوانب والقسمات ، فمنها الجانب الحضاري الذي يثبت الفرق الهائل بين ما وصل إليه الغرب في القوانين والدساتير، والحقوق والواجبات ، واحترام الإنسان ، وتوفير ما يحتاج إليه الإنسان من رعاية ورفاه

وضمان الحقوق في التعليم والعمل، والمنافسة الشريفة في المناصب والإعمال، وما هو عليه حال الشرق العربي، ومنها الجانب العلمي المتمثل في تعدد الجامعات العريقة، التي لها تقاليد علمية راسخة، يمتد بعضها إلى مئات السنين، وفي كفاءة الأساتذة الذين تصدروا للتدريس والإشراف، ومتابعة العملية التعليمية والبحثية في تلك الجامعات.

ومن أبرز مظاهر التجربة العلمية التي يعيشها الطالب في الجامعات البريطانية غنى المكتبات الوطنية، ومكتبات الجامعات، والمكتبات الخاصة بالمخطوطات والوثائق العربية الأصلية، التي تبلغ عشرات الآلاف، وفي مختلف العلوم والفنون العربية والإسلامية .

ومما هو مثير في تلك التجربة: المتاحف الوطنية البريطانية المكتنزة بآثار الشرق وعادياته، وتحفه وكنوزه، مع شدة الحرص من الانجليز على هذه المقتنيات، وعدها ترثاً وطنياً لهم .

ومن مظاهر التجربة العلمية تركيز الجامعات البريطانية على تأصيل المنهجية العلمية في نفوس الطلاب، وتدريبهم على البحث العلمي الذي يقوم على الاستقصاء، و

شدة الطلب في البحث عن المصادر، وكل ما هو أصيل وجيد، يمكن أن يخدم الدراسة العلمية.

ومما لا شك فيه أن استقصاء جوانب هذه التجربة الخصبة لطلاب الدراسات العربية والإسلامية في بريطانيا أمر يصعب حصره وتقديمه في مقالة لمؤتمر علمي ، ولذا فإننا سنركز في هذه الورقة على بعض الجوانب التي اتصلت بتجربتنا، ومن خلال تعاملنا مع المصادر العلمية الاستشراقية التي كانت متاحة لنا أثناء فترة الدراسة التي استغرقت أربع سنوات، وترددنا خلالها على مراكز البحث والمكتبات البريطانية وسيتطرق الحديث إلى :-

- أوراق الجنيزة.
- أوراق البرديات العربية المحفوظة في المكتبات البريطانية.
- المعاجم التي وضعها المستشرقون الانجليز، وأهميتها مقارنة مع المعاجم العربية.
- دُور الكتب والمحفوظات البريطانية.
- المخطوطات والوثائق العربية، وما أعده المستشرقون لها من فهارس.
- دَور المستشرقين الانجليز في تحقيقها، وفهرستها ونشرها، وترجمتها إلى لغتهم.

*** أوراق الجنيزة:**

ومن المصادر الدراسية التي وجدنا المستشرقين الانجليز يولونها عناية كبرى " أوراق الجنيزة " والجنيزة كلمة عبرية يقابلها في العربية الجنازة التي تعني السرير مع الميت[1].

وقد عثر المستشرقون على هذه الأوراق والوثائق المكتوبة نصوصها باللغة العربية، ولكن حروفها عبرية، في معابد الفسطاط بمصر، ثم انتقلت هذه الأوراق إلى المكتبات الأوروبية، وقام المستشرقون بفهرستها، وكتابة الدراسات عنها.

ومما لفت نظرنا في أثناء ترددنا على مكتبة جامعة كمبرج أنها تحتوي على كم هائل من أوراق الجنيزة ، وقام الباحثون الانجليز بإعداد فهارس دقيقة لكل هذه الوثائق، وعلمنا أن بعض الجهات الداعمة للبحث العلمي في بريطانيا قد قامت بتقديم دعم سخي لهذه الفهرسة، بحيث أصبحت في متناول المهتمين .

والملاحظ على هذه الوثائق بالنسبة للباحث في الدراسات العربية، أنها تشتمل على وثائق أصلية، صادرة عن دواوين الرسائل الإسلامية في العهود الفاطمية، والأيوبية والمملوكية، وقد وجد في هذه الوثائق القصص (العرائض)، والمناشير، والتوقيعات، وغيرها من الوثائق التي يدرجها المستشرقون تحت اسم الأدب الإداري.

ومناهج المستشرقين تولى عناية كبرى للأدب الإداري؛ لأنه وثائق رسمية تصدر عن دواوين الدولة وإدارتها المختلفة ، ولذلك فإن الدراسات التي تجرى عليها تكون أكثر صحة ، ونتائج دراساتها لا يتطرق إليها الشك كما هو حال أكثر التراث المنقول شفاهاً على شكل حكايات أو روايات نقلها الرواة جيلاً عن جيل ثم دونت في عصور تالية.

وخرجنا بأهمية الالتفات إلى هذا الضرب من الوثائق، وإلى البحث عن كل ما هو أصيل منها ، علماً بأن البلاد العربية والإسلامية تحتوي على الكثير منها، بل هي مصدرها الأساس، ولكن البحث عن هذه الوثائق ودراستها ما زال غير مهتم به في جمهرة أقسام اللغة العربية، والدراسات الإسلامية في البلاد العربية والإسلامية .

ومن أبرز المستشرقين الذين التفتوا إلى دراسة أوراق الجنيزة س.م ستيرن sterm S.M الذي نشر من أوراق الجنيزة وثيقة تتعلق بالتجار الايطاليين صادرة عن ديوان الإنشاء

---

(1) انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط (جنيز).

الفاطمي ، أما المستشرق جوايتين S.D. Goitein فهو صاحب الجهود المتميزة في دراسة أوراق الجنيزة حيث يقدر عدد ما هو مكتشف منها بـ 250 ألف مادة موزعة على مكتبات العالم[1].

وقد لاحظنا أن عددا كبير أ من المستشرقين الانجليز يقدرون جهود جواتين تقديراً كبيراً ، ويعدونه مصدراً مهما في أوراق الجنيزة وعادة ما يطلبون من طلابهم الرجوع إلى كتابه الذائع الصيت Amediterranean, Society مجتمع حوض البحر الأبيض المتوسط، والكتاب بحق موسوعة تقع في خمسة أجزاء، وتعتمد في دراسة مجتمع البحر الأبيض المتوسط على أوراق الجنيزة، ولذا فإن هذا الكتاب يكتسب قيمته الكبرى بين الباحثين من أصالة مصادرة.

ومما هو لافت للنظر أن دراسات المستشرقين الأدبية والوثائقية والتاريخية، توظّفُ في خدمة سياستهم وأهدافهم، بحيث يستمد الساسة وصناع القرار من هذه الدراسات، في بلادهم كثيراً من المصطلحات والمفاهيم والأفكار التي تتناقلها وسائل الإعلام في بلادهم، بل وسائل الإعلام العربية والإسلامية والعاليمة، وهنا تبدو أهمية عولمة وسائل الإعلام.

*** أوراق البردي:**

تعد أوراق البردي من أهم المكتشفات التي عرفها الإنسان في تاريخ الكتابة ، وعرف نبات البردي بأرض مصر، ومنها انتشرت أوراق البردي في العالم.

ومع قيام الدولة الإسلامية، وتمدد فتوحاتها في آسيا وإفريقيا وأوروبا ، انتشر ورق البردي في دواوين الدولة الإسلامية، وكانت المراسلات الإدارية والعسكرية بين الخلفاء وعمالهم في الأمصار، تكتب على البردي، إلى أن عرفت صناعة الورق في بغداد زمن الخليفة هارون الرشيد فحّل محله.

---

(1) انظر الدروبي : "**من جهود المستشرقين في دراسة الأدب الإداري عند العرب ونشره** ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني، عدد (50) ، السنة (20)، 16،14هـ/1996، ص71.

ومع بداية المدّ الاستعماري الغربي الحديث كشف المستشرقون في البلاد العربية والإسلامية كثيراً من أوراق البردي، التي تعود إلى العصور الإسلامية الأولى .

وقد تبين لنا من الدراسة أنَّ عدداً وافراً من هذه البرديات، قد نقل إلى المكتبات الأوروبية ، وعند ترددنا على مكتبة جون ريلاندز بمانشستر بهرنا بكثرة أوراق البردي العربية الموجودة فيها، ورجعنا إلى الفهرس الدقيق الذي وضعه المستشرق مرجليوث Margoliouth D.S (1858-1940)، إضافة إلى دراسات أخرى لمرجليوث في موضوع البردايات العربية .

ومعلوم لدى الباحثين الآن أن عدد البرديات العربية المكتشفة والمحفوظة في مكتبات العالم يصل إلى خمسين ألف بردية أغلبها غير مفهرس، هو دليل على قصور جهودنا العلمية في مجال الحفاظ على هذا التراث المهدد بالاندثار والضياع.

وتحتاج هذه البرديات أو الوثائق الإسلامية إلى جهود من الباحثين العرب والمسلمين لفهرستها ودراستها ونشرها , والملتفتون من العرب إلى هذه النصوص الوثائقية الكبيرة القدر، والعظيمة الأهمية قليلون جداً؛ لان العمل في تحقيق أوراق البرديات العربية ونشرها، يتطلب جهداً هائلاً لصعوبة الخطوط التي كتبت بها هذه الأوراق .

وأضرب مثلاً بجهود مستشرق واحد في خدمة البرديات العربية، وهو جروهمان، الذي قام بنشر وثائق البردي المحفوظة بدار الكتب المصرية ، وترجمها إلى اللغة الانجليزية، وشفع ذلك بدراسة وثائقية لكل واحد منها ، ونشرها في عشرة مجلدات [1]

* **المعاجم :**

إن الباحث في ميدان الدراسات العربية والإسلامية تأخذه الدهشة عندما يتعرف من خلال دراسته على الجهود الضخمة التي بذلها المستشرقون بعامة والانجليز بخاصة في خدمة المعاجم العربية .

---

(1) انظر الدروبي : "**من جهود المستشرقين في دراسة الأدب الإداري عند العرب ونشره** ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، السنة العشرون ، 14،16هـ /1996 ، وعدد (50) ، ص 65-69 .

وعناية المستشرقون الانجليز بالمعاجم العربية تعود إلى بدايات الاستشراق الانجليزي، وذلك عندما قام المستشرق وليم بدويل(Bedwell.w) (1561_1632م) بتأليف معجمه الضخم الموسوم بـ" المعجم العربي" منذ مطلع القرن السابع عشر، وقد وقع هذا المعجم في سبعة أجزاء ، ولكن من المأسوف عليه أن بدويل لم ينشر معجمه.

وعلى الرغم مما عُرف عن بدويل من تعصب، وسوء فهم للإسلام، إلا أنه أبدى ملاحظة مهمة عن اللغة العربية، ودورها الحضاري والسياسي، لأنها على حد قوله : "لغة الدين والسياسة والمعاملة من الجزائر إلى الصين"[1].

ولكن أكثر المستشرقين الانجليز اهتماماً بالمعاجم العربية هو ادوارد لين (1801-1876) .Lane,Ed.w الذي أمضى ربع قرن في تأليف معجمه الجليل " مدّ القاموس".

إن جهود المستشرق الانجليزي إدوارد لين لم تقتصر على موسوعته المعجمية السالفة الذكر ، بل قام بترجمة " ألف ليلة وليلة " من اللغة العربية إلى الانجليزية، وكانت براعة لين في قدرته على تحويل روح النص العربي إلى اللغة الانجليزية.

وقد وجدنا أن الإنجليز يولون هذه الترجمة عناية كبرى، حيث عرّف لين بترجمته البارعة لألف ليلة وليلة القارئ الغربي بعامة، والانجليزي بخاصة بهذه الرائعة العربية، التي تمثل الحياة الشعبية في بغداد ودمشق والقاهرة وغيرها من الحواضر الإسلامية.

إن إعجاب لين بالشرق والشرقيين، قد دفعه إلى العيش في مصر منذ سنة 1825، ولبضعة سنوات، وتعلّم العربية فيها، وأتقنها إتقاناً تاماً ، ورسم في كتابه الموسوم بـ" عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم " صورة نابضة بالحياة للمجتمع العربي المسلم في مطلع القرن التاسع عشر ، وعندما نشر كتابه السالف الذكر في بريطانيا عده الانجليز ذخيرة من ذخائرهم الأدبية[2].

وفوق ذلك، فإنه قد أشار إلى الحياة العلمية في القاهرة ، وأنها على الرغم من تراجع العلوم العربية والإسلامية في نهاية العصر العثماني، إلا أن القاهرة لم تفقد دورها العلمي، لوجود الأزهر فيها أولاً ، ولكثرة العلماء ثانياً، بحيث أنه أصبحت محط أنظار طلاب العلم من مختلف

---

(1) العقيقي، **المستشرقون**: 464/3.

(1) انظر: **المصدر السابق**: 481/2

أرجاء البلاد العربية وفي ذلك دلالة كبرى على أن الوحدة الثقافية للعالم الإسلامي لم تنقطع، أو تتوقف في يوم من الأيام، حتى في أكثر العصور التاريخية ضعفاً.

ويبدي لين ملاحظاته على اللغة العربية في عصره ويبين مستوى اللهجات العربية التي تتفاوت من طبقة إلى أخرى ، ولكنه يؤكد حقيقة مهمة، وهي ردٌّ مفحم على المستشرقين الذين توجهوا إلى دراسة العامية وإلى الكتابة بها وتعلمها، وذلك محاربةً للفصحى لغة القرآن الكريم، يقول : " لا فرق كبير في الواقع بين اللهجة الأدبية وتلك الدراجة في اللغة العربية كما تصوّر ذلك بعض المستشرقين الأوروبيين"[1]

ويبدو لنا أن هذا الموقف المنصف، الذي يقوم على عدم وجود هوة بين العربية الفصحى والعامية والمحكية، قد جاء رداً على المستشرق الفرنسي الشهير دي ساسي، الذي جند تلاميذه لهدم العربية الفصيحة، وإحلال العامية مكانها من جانب ، كما أن رأيه السالف كان من أقوى بواعث لين لتأليف معجمه العظيم " مدّ القاموس " الذي وصفه ج..ب بادجر قائلاً : " إن هذا العمل الرائع في شموله، وغناه في بحثه العميق ودقته ، وفي بساطة ترتيبه ، ليفوق إلى حد بعيد أي معجم كان في أيّة لغة في العالم.

وقد تبين لنا من خلال تجربتنا البحثية في مرحلة الدكتوراه، أن هذا العمل على درجة كبيرة من الأهمية ، حيث حوى كثيراً من المواد والمفردات والمصطلحات التي خلت منها أشهر المعاجم العربية القديمة مثل " تهذيب اللغة " للأزهري ، و" لسان العرب " لابن منظور المصري، و" تاج العروس" للزبيدي ، وغيرها من المعاجم العربية القديمة التي خضعت لمنهجية معيارية صارمة،ووقفت عند ما فصح وصح الحديث به من لغة العرب ، وأوصدت أبوابها المنيعة وقلاعها الحصينة في وجه سيل الألفاظ الأعجمية الدخيلة التي تسربت إلى لغة العرب بفعل الفتوحات الإسلامية ، ونتيجة لحركة الترجمة والتعريب الزاهرة في العصر العباسي، ولتعرض البلاد الإسلامية لغزوات الفرنج والتتار والاتراك ، وكذلك نتيجة التفاعل والتلاقح والامتزاج الجنسي والحضاري بين مختلف الشعوب الإسلامية من العرب والفرس والأكراد والترك والجركس والاحباش والبربر وغيرهم.

((2) لين، **مد القاموس**: ج1 (مقدمة الناشر).

ومما هو لافت للنظر في تجربتنا، أن أول المعاجم العربية المؤلفة في العصر الحديث وهو معجم " محيط المحيط " لـ بطرس بن بولس البستاني المتوفى (1883 م) قد اعتمد اعتماداً كلياً في شرحه لكثير من مواده على معجم لين " مد القاموس". [1]

ومما يزيد في القيمة العلمية لهذا المعجم، الذي ما زال من أهم المعاجم العربية في العصر الحديث ، والذي عجزت المؤسسات والمجامع العلمية العربية الإسلامية عن تجاوزه، أو مضاهاته حتى الآن أنه : " جمع لأول مرة في تاريخ المعاجم العربية المفردات من أمهات كتب الأدب ، مما لم يرد في المعاجم القديمة أو معجمي جوليوس وفرايتاج ، ومنتخبات من القران الكريم ، بحيث أصبح قاعدة بنيت عليها معظم المعاجم العربية الأحدث عهداً باللغات الأوروبية ، وما زال من أجود المعاجم المتداولة أمثال معجم كازيميرسكي بالعربية والفرنسية ، ومعجم بادجر بالانجليزية والعربية[2].

ومن المستشرقين الذين لهم القدح المعلى، والجهود الجادة في تأليف المعاجم الثنائية اللغة (العربية والانجليزية) المستشرق جورج برسي بادجر G.P. Badgor (1815 - 18880 م) الذي ألف الذخيرة العلمية باللغتين الانجليزية والعربية وقد طبع في لندن سنة 1882م[3].

ومما هو جدير بالذكر أن للمستشرقين جهوداً ضخمة في صنع المعاجم الثنائية التي تجمع بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الأوروبية ، ومن أجود هذه المعاجم " تكملة المعاجم العربية " لرينهارت دوزي ، الذي وصل بعد تعريبه الى أحد عشر مجلداً مطبوعاً باللغة العربية.

ولا ننسى جهود المشتشرق ونسنك في عمله الجليل الموسوم بـ "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي " الذي ضعه لفهرسة ألفاظ الصحاح الستة، ومسند الدارمي، وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل.

---

(1) انظر : الدروبي : " **حياة لفظة فهرس في المعاجم اليسوعية** " ، بحث مقدم في جامعة منوبة / تونس /1431هـ 2010م
تكريماً للاستاذ العلامة ابرهيم بن مراد

(1) العقيقي، **المستشرقون**: 481/2.
(2) انظر: **المصدر السابق** 484/2

وقد أمضى وِنستك ثلث قرن في عمله هذا وأدركه الأجل دون إتمامه، فأكمله تلاميذه فيما بعد ، ونشر في مكتبة بريل في مدينة ليدن سنة 1936م ، وكان من أهم الأعمال التي خدمت السنة النبوية الشريفة، والدراسات العربية الإسلامية كافة ، حيث وفرّ على الباحثين جهداً هائلاً في تخريج الأحاديث النبوية، وحصر ألفاظها، ومعرفة دلالاتها واستعمالاتها.[1]

ويبدو أن عناية المستشرقين بالمعاجم كبيرة وعظيمة ، ولعل مردّ ذلك إلى التقدم الحاصل في دراسة العلوم الطبيعة والإنسانية في بلادهم من جانب ، والى حركة التوسع الاستعماري التي جعلت الانجليز وغيرهم من الأوروبيين يهيمنون على أغلب أرجاء العالمي الإسلامي.

وكانت ظاهرة وجود المعاجم لدى الغربيين لافتة للمؤرخ الجبرتي، عندما وصف ما لدى علماء حملة نابليون من أدوات ومختبرات، يقول : " عندهم كتب مفرده لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت. [2]

*** المخطوطات العربية والآثار العربية الإسلامية :**

إن ظاهرة وجود المخطوطات والآثار العربية الإسلامية في الغرب تثير كثيرا من الباحثين ، وقد استغرب كثير منا كيفية حصل الغربيين علي هذه الآثار والمخطوطات؟ ومتى وصلت إليهم ؟ ولم نقلت من الشرق إلى الغرب ؟ وما هي الظروف، والأحوال التي أدت إلى تسربها إلى المكتبات ودور الكتب والمخطوطات والمتاحف في أوروبا وأمريكا، وروسيا وغيرها من الأصقاع والبلدان؟

والإجابة على هذه الأسئلة تكمن ببساطة في قوتهم وضعفنا ، وفي تقدمهم العلمي في جميع الميادين وفي تأخرنا، وفي ديمقريطيهم وفي استبدادنا.

فالتقدم الغربي في العلوم والصناعات العسكرية والمدنية، أدى إلى اجتياحهم للعالم، ونقل الحضارة والعمران لمن هو متخلف عنهم ماديا وحضارياً، ولكنهم في الواقع كان يسعون وراء ابتلاع ثروات العالم الإسلامي وغيره من جانب، كما عملوا

---

(1) انظر ونسنك "**المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف (الغلاف)**

(2) الأوامر والمكابتات الصادرة من عزيز مصر محمد علي : 48/1

على نشر لغاتهم وثقافاتهم في البلاد التي وقعت فريسة استعمارهم من جانب آخر.

وعندما جاءت حملة نابليون إلى مصر نقل كثير من الآثار والمخطوطات إلى فرنسا ، وحكموا في مصر الشام حكم القوي الذي له حق الاستيلاء والمصادرة لكل شيئ، على الضعيف الذي لا حول له ولا طول.

وقد سعى كثير من التجار والسماسرة والقناصل الأوروبيين إلى البحث عن الآثار والمخطوطات في البلاد العربية.

ولدينا وثيقة صادرة من محمد علي باشا باني نهضة مصر والبلاد العربية في العصر الحديث تؤكد التنظيم والتخطيط لدى القناصل الغربيين في موضوع ترحيل الآثار الشرقية إلى بلاد الغرب الاستعماري، " والوثيقة عبارة عن أمر من محمد علي باشا أصدره الى كاشف الجيزة وتاريخه 20 ربيع أول سنة 1227هـ الموافق 1812م ، ونصه.

" يشير به أن صديقة صولت قونصل الانكليز، والخواجة دوروتي قونصل فرنسا ، والخواجة بوكتي قونصل أسوج (كذا) باتحادهم مع بعض، عينوا من طرفهم القبودان فاويليا بالتوكيل عنهم، لاستخراج أثارات قديمة بجهات الأهرام، وتقسيم ما يعثر عليه من الآثارات القديمة بين بعضهم ، والتمس صديقه قونصل الانجليز التصريح له بذلك ، ويشير به عدم المخالفة في ذلك مع الملاحظة".

فالنص السابق يكشف لنا بجلاء عن تآز القناصل الأوروبيين على الحصول على آثار الشرق دبلوماسياً، عن طريق علاقتهم الحميدة مع والي مصر الذي كان في طور تأسيس دولته الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر ، والذي ربما لم يدرك القيمة الكبرى لهذه الآثار والمخطوطات والأوراق التي تكنها الأرض العربية، وتنم عن حضاراتها العريقة.

وقد رفد الساسة والقناصل والعسكريون والمندوبون البريطانيون مكتباتهم الوطنية ومتاحفهم، بالكثير من كنوز الشرق ومخطوطاته ، ومن هؤلاء غوردون باشا ، وتشرشل، والسيد مري قنصل بريطانيا في القاهرة ، والسيد هنري رانلسون قنصل بريطانيا في بغداد.

وكذلك فعل بعض المستشرقين والرحالة مثل إدوارد لين وادوار جلازر، وغيرهم العشرات، أي إن الانجليز وظفوا كل علاقاتهم وقناصلهم، وعلمائهم ورحالتهم للحصول على تراث الشرق.

ومهما قيل عن هذا التراث العربي والإسلامي الذي حازه الاوروبيون سلباً ونهباً وإهداء وشراءً ، فإنهم قد احتفلوا به احتفالاً عظيماً ، وأدركوا عظمة هذا التراث الذي كنزوه في متاحفهم، وجعلوه متاحاً لكل باحث وطالب علم .

وقد تردد الباحثان الى كثير من دور الكتب والمخطوطات البريطانية أثناء مرحلة الدراسة وبعدها، وأهمها على الإطلاق المتحف البريطاني الذي يحتوي على عشرات الآلاف من المخطوطات العربية التي رتبت بطريقة جميلة في الطابق الثاني من بهو المعرض الهائل.

وقد عرض بعض هذه المخطوطات النادرة في المتحف البريطاني في صالة عرض المتحف البريطاني ، منها مقامات الحريري المصورة ، ومصحف السلطان المملوكي ابي النصر قايتباي وغير العشرات من نوادر المخطوطات والعملات والآثار بحيث شعر الشرقي أن روح الشرق قد بعثت من جديدة في المتحف البريطاني الذي لولا الشرق وتراثه ما كان له أن يكون بمثل هذه الفخامة والمهابة والعراقة.

وقد دلتنا تجربة الدراسة في الجامعات البريطانية على أن استجابة العقلية الاستشراقية للمخطوطات العربية كانت ايجابية ، حيث عكف كبار المستشرقين على فهرسة هذا التراث الاسلامي العظيم، ونشروافهارسه للباحثين ، مما أدى إلى انتفاع كثير من الدارسين بهذه المخطوطات المحفوظة في المكتبات البريطانية، والحصول عليها بطريقة التصوير الفوستاتي، أو الميكروفلمي، او الفيشي، وغيرها من الوسائل التي تطورت مع تطور وسائل الاتصالات والتخزين الضوئي والشابكة الدولية.

وقد يبدو من المناسب أن نذكر بعضاً من جهود المستشرقين الانجليز في تصنيف الفهارس الدقيقة والنافعة، لما حوته المكتبات البريطانية والهندية خلال فترة التمدد الاستعماري البريطاني، ومن هذه الفهارس : –

- فهرس المخطوطات العربية لكورتون وريو، وقد وقع هذا الفهرس في 882 صفحة، ووصفا فيه 1653 مخطوطاً عربياً .
- ذيل فهرس المخطوطات العربية لريو ، وصف فيه 1303مخطوطاً
- كشاف وصفي للمخطوطات العربية التي اقتناها المتحف بعد عام 1894 ، لإليس وإدواردز

- فهرس المخطوطات العربية في مكتبة ديوان الهند لـ أوتولوث، وقد أعدَّ المجلد الأول من هذا الفهرس ، أمَّا المجلد الثاني، فقد جاء مقسوماً على أربعة أجزاء : الأول في أدب القران، وقد وضعه لستوري ، والثاني في التصوف والأخلاق لاربري ، والثالث والرابع في الفقه وعلم الكلام، وهما من عمل روبين ليفي .
- فهرس المخطوطات العربية في مانشستر وهو من عمل منغنا .
- فهارس المخطوطات الشرقية في مكتبة البودليان بأكسفورد لـ يانوش أوري، والكسندر نيكول .
- فهرس المخطوطات العربية والسريانية والعبرية في جامعة جلاسجو لـ جون جيب.
- فهرس المخطوطات الشرقية في كمبرج لـ إدوارد هنري بالمر.

والحق أن الباحث يدهش لهذه الجهود الكبيرة في فهرسة التراث العربي، مما سهل حفظه في مكتباتهم من جانب ، ويسر أمر الحصول عليه من جانب آخر .

ولم تقتصر جهود المستشرقين على حفظ التراث العربي والإسلامي وفهرسته، بل تعدو ذلك الى نشر هذا التراث ، حيث صدرت لهم مئات الكتب العربية والإسلامية المحققة تحقيقاً علمياً صحيحاً لا شكلياً كما هو واقع الحال لأكثر ما ينشر في البلاد العربية والإسلامية، وأصبح الكثير من نشراتهم العلمية نموذجا يحتذى في الدقة العلمية، وذلك، بتطبيقهم المنهج الفيلولوجي الصارم على هذه النصوص، مع ما عرفوا من بذل قصارى الجهود العلمية ، والصبر والأناة على العمل، وحتى لو امتد بهم سنوات طويلة.

وقام نفر من المستشرقين بإبراز تلك الاعمال العلمية الشامخة في أبهى صورة وأجمل حلة حتى ولو على نفقتهم الخاصة، كما هو الحال في مجموعة جب التذكارية، وإضافة إلى ما زودت به نشراتهم من أجهزة نقدية وافية، وفهارس فنية كاشفة، لا يعرف قيمتها إلا من له باع في البحث .

ولعل من المناسب أنّ نذكر بعضاً من نشرات المستشرقين الانجليز، أو ممن كتبوا بحوثهم ودراساتهم ونشرياتهم باللغة الانجليزية ومن هذه المنشورات:

- الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي ، وقد نشره ادوارد بوكوك في اكسفورد سنة 1702م.

- مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق ادوارد بوكوك ونشر في لندن سنة 1773م .
- كتاب الجدري والحصبة لأبي بكر الرازي ، حققة دون تشاننج مع مقدمة لاتينية ونشره في لندن سنة 1766م .
- كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة لابن موسى الخوارزمي ، حققة راولندسون، ونشره في لندن سنة 1830م ، ثم قام بترجمة الكتاب إلى اللغة الانجليزية، وأصدره في سنة 1831م .
- الملك والنحل للشهرستاني ، حققة وليم كورتون ونشره في لندن سنة 1842-1846 م.
- رحلة ابن جبير ، حققها وليم رايت ، وترجمها إلى اللغة الانجليزية، وقد نشرها في لندن سنة 1852م .

ولسنا بصدد حصر ما حققة المستشرقون الانجليز – على كثرته –ولكن الظاهرة اللافتة للنظر أنهم قد بدأوا بتحقيق الكتب العربية الإسلامية وترجمتها إلى لغاتهم قبل أن يبدأ العرب والمسلمون ذلك بقرنين من الزمان في الأقل، ويعود السبب في ذلك إلى نهضة الغرب السريعة، وتملكه لأسباب القوة المادية والصناعية والعلمية، التي مكنته من الزحف إلى الشرق، والسيطرة على أغلب أقطاره، ونهب الكثير من خيراته وثرواته، والإفادة منها مادياً وحضارياً في بناء نهضتهم المعاصرة.

وتدلنا كثرة الكتب التي عني المستشرقون بتحقيقها ونشرها وترجمتها ودراستها إلى أن العلم ومناهجه الحديثة في البحث والدرس كانت وسيلة قوية، وأداة فاعلة تمكن الغربيون من خلالها من فهم الشرق تاريخاً وحضارة، وديانة ومجتمعاً وأخلاقاً.

وبناء على ما تقدم فإن الغاية الاستعمارية من الاستشراق موجودة بالفعل، ولكن هذا الجانب النفعي البرجماني من الاستشراق لا يلغى الأهداف العلمية، والبواعث الإنسانية، وراء دراسة الشرق وفهمه؛ لأنه مصدر الحضارة الإسلامية من ناحية، ولارتباط أرضه بتاريخ وأنبياء الديانات السماوية وبخاصة اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى.

وفوق ذلك، فإن دراسة بعض المستشرقين للشرق وآدابه، وما تبع ذلك من رحلة بعضهم للشرق، والإقامة فيه، قد أدى إلى انبهارهم بحضارة الشرق، ومنهم من اتخذه دار إقامة،

واحب العرب والمسلمين، وبعضهم اعتنق الإسلام ديناً، بعد أن كشفت عن عينيه كل الحجب التي وضعها الاستشراق التبشيري.

ونذكر من هؤلاء الذين شرح الله صدورهم للإسلام المستشرق الانجليزي جون لويس بيركهارات مكتشف البتراء في بلادنا والتي هي إحدى عجائب الدنيا ، كما أن رحلته الرائعة قبل قرنين من الزمان أصبحت مصدراً من مصادر تاريخ الشرق العربي [1].

وبناءً على ما تقدم عرضه فإن الاستشراق بعامة يُعدُّ من أبرز ظواهر العولمة، قبل أن تُعرف بمصطلحها المعاصر، ودلالاتها الحديثة، ويكون المستشرقون العلميون قد عَرفوا العالم بالدور الإنساني والحضاري الذي أداه الإسلام للبشرية، علماً بأن كثيراً منهم ما زالون يجحدون نبوة محمد عليهم السلام، ويعدون الحضارة الإسلامية مجرّد وسيط حضاري بين الحضارات السابقة عليها كالفارسية والهندية واليونانية والرومانية، وبين الحضارة الأوروبية الحديثة، ونأمل أن تؤدي عالمية الثقافة الإنسانية إلى تصحيح هذه المفاهيم الزائفة التي هي من الموروث غير الحميد للاستعمار الغربي الحديث.

(1) انظر : بيركهارت **رحلات في الديار المقدسة والنوبة والحجاز** : (المقدمة)

مصادر البحث

- **بيركهارت** ، جون لويس

* **رحلات في الديار المقدسة والنوبة والحجاز** ، ترجمة فيصل ابو غوش ، وزارة الثقافة ، والأردن ، 2005 م .

- **الجبرتي** ، عبد الرحمن بن حسن .

***عجائب الآثار في التراجم والأخبار** ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة 2003م .

- **الدروبي** سمير :

* **من جهود المستشرقين في دراسة الأدب الإداري عند العرب ونشره**، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، العدد (50)، السنة 1416هـ /1996م.

* **الترجمة والتعريب بين العصرين العباسي والمملوكي**، ط1، مركز الملك فيصل، الرياض، 2007م.

* **حياة لفظة فهرس في المعاجم اليسوعية**، بحث مقدم تكريماً للأستاذ إبراهيم بن مراد، جامعة منوبة، تونس، 1431هـ/2010م.

- **العقيقي** ، نجيب

* **المستشرقون** ، دار المعارف ، القاهرة 1964م .

- **الفيروز آبادي**، محمد بن يعقوب:

* **القاموس المحيط**، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1986م.

- **محمد علي** (والي مصر)

* **الأوامر والمكاتبات الصادرة من عزيز مصر محمد علي** ، تحقيق : أمينة عامر ورفاقها ، دار الكتب المصرية ، ط 1 ، القاهرة ، 2005م .

- **لين** ، ادوارد :

* **عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم**، ترجمة سهير دسوم، مكتبة مدبولي، القاهرة ، 1991م .

* **مدّ القاموس** ، لندن ، 1877 م.

- **وِنسنك** ، أ.ي :
- **المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي** مطبعة بريل ، لندن 1936م .